رمز الحجر في القصيدة الفلسطينيّة المعاصرة

د.عبداوي حفيظة

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس

وظّف الشّاعر الفلسطينيّ جملة من الرّموز للتّعبير عن مأساة وطنه،وبما أنّه كان لصيقا بأرضه،فمن المنطقيّ أن يعمد إلى الرّمز الطّبيعيّ الّذي وجد فيه المؤنس والمعين.

الرّمز:لغة: جاء في القاموس المحيط :"الرَّمْزُ ويُضَمُّ ويُحَرَّكُ الإشارة،أوالإيماء بالشَّفَتَيْنِ أو العَيْنَيْنِ أو الحاجبين أوالفم أو اليد أو اللسان، يَرْمُزُ ويَرْمِزُ"[1].وجاء في أساس البلاغة :"رمز إليه وكلّمه رمزًا: بشفتيه وحاجبيه .ويقال جارية غَمَّازَةٌ بِيَدِها همّازة بعينها لمازَةٌ بفمها رمَّازَةٌ بحاجبها[2].يعزّز هذا الكلام ما جاء في تفسير قوله تبارك وتعالى :﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**﴾[3]"همزة لمزة طعَّانمعيابٌ..... الهمزة واللّمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم"[4].

قال الطّرمّاح من الطّويل:[5]

إذَا ما رَآهُالكَاشِحُونَ تَرَمَّزُوا حِذَارًا وأَوْمُوا كُلُّهُمْ بِالأَنَامِلِ

وجملة القول في معنى الرّمز لغة، أنّه الإشارة والإيماء بأحد الجوارح.

اصطلاحا:هو شكل من أشكال التّعبير الجمالي :"إنه وسيلة إدراك ما لا يستطاع التعبير عنه بغيره فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أيّ معادل لفظي"[6].

شغف الشاعر الفلسطيني بطبيعة بلده ،وتوطّدت أواصر المحبة بينهما ، وراح يعبّر عن همومه ومعاناته من خلالها، فمن شجرة الزيتون التي أقسم الله تبارك وتعالى بها في قوله : ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ**﴾[7]،وتحدّث النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال :"كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنُوا به فإنه من شَجَرَةٍ مباركةٍ"[8].

يحقّ لنا بعد هذين الشّاهدين أن نقول:إنّ شجرة الزيتون شجرة مقدّسة،إنّها مصدر رزق، ومصدر صحّة للإنسان وهي تتشبث بالأرض وتتعلق بالحياة كمثله تماما، من أجل ذلك اتخذها الشعراء الفلسطينيون رمزا للتعبير عن الأرض المغتصبة من جهة، وللتعبير عن المقاومة من جهة أخرى، وقد استوعب هذا الرّمز الطبيعي وغيره من الرموز، كالبرتقال والليمون والنخيل فترة الانكسار والحنين التي خلفت النكبة في عام 1948،غير أنه استنفذ طاقته الإيحائية فيما بعد في تحوّله إلى مجرّد إشارة، كما استنفذ مهامّه الجماليّة بعد أن أخذت المقاومة الفلسطينية في البروز.

فكان لزامًا على الشاعر الفلسطيني أن يلجأ إلى رمز آخر من الرموز الطَّبيعية ليعبّر عن الانتفاضات الفلسطينية المتناثرة على مدار السّبعينات والثّمانينات،ففرضت عليه التّجربة النّضالية رمز الحجر الّذي يجسد بطولة الشّعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال الصّهيوني يقول معين بسيسو:

تفاجئُني الأرض ،إنّ الحجارة تقاتل والأنظمة

بنادقها ملجمة

تفاجئني الأرض ، أنّ أكُفَّ الصَّبايا

مرايا

وكفّ الشّهيد بحجم السّماء [9]

إنّ ثمّة تكاملاً بين الحجارة والصّبايا والشّهيد والأرض،فالأرض تلد الحجارة، وهذه تَتَمَرْأى بأَكُفِّ الصّبايا لتصبح هي القضيّة الأولى في كفّ الشهيد،فالحجر في يد الطّفل الفلسطيني الثّائر أصبح رمزًا شعريًا يتكرَّرُ في جميع قصائد الشّعر الفلسطيني المقاوم، وخاصّةً شعر الانتفاضة المجيدة أي أنّ الحجارة في تحوّل دائم، فمن الأرض إلى الصّبايا ، ومن الصّبايا إلى الشّهيد ،ومنه إلى الأرض، ومن الأرض إلى البطولية والمقاومة[10].

نلحظ هذا التّكامل في الحجر الأُسطورة عند أحمد دحبور، وهو يجري مقارنة بين الحلم والواقع فلا يجد غير اليتيم خارج الأرض، الّتي هي أمّ الجميع ولكنّها ليست للجميع، هي مليئة بالمسرّة لكن حتّى الكسرة (الخبز)صارت حلمًا شاهقًا لشاعرنا وغيره من أبناء فلسطين، فهم لا يستطيعون الارتقاء إلى ذلك الحلم حتّى في ساعات النّوم:

كانت الكسرة حلمًا شاهقًا

نغفوا ولا نرقى إليه

وبخار الحجر المسلوق لا يغني

ولا تغني أمانينا إليه

كانت الأرض مسرّات

وكنّا خارج الأرض يتامى [11]

في كلام دحبور تجسيد للفقر المقذع الذي يعانيه أهل الأرض المحتلة، في ظل القهر والحصار الذي يفرضه عليهم اليهود،فعندما تغدو الكسرة حلمًا شاهقًا لا يطاله الانسان حتّى في إغفائه ، يصبحُ البحث عن العدالة المفقودة خارج الأرض معادلًا موضوعيًّا في ذات الشّاعر، فيُعبّر عمّا يجول في نفسه بتلقائية تامّة.

إنّ بخار الحجر المسلوق الّذي هو رمز العدم يحيلنا إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه–وكلمة العادل ضئيلة جدّا في حقّه،فقد أثنى عليه صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث قال صلى الله عليه وسلّم :"**لَقدْ كان فِيمَنْ كان قبلَكم من بني إسرائيلَ رجالٌ يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبيّاءَ، فإن يَكُن من أُ مّتي منهم أَحدٌ فعُمرُ**"[12]– وقصّته مع المرأة الّتي كانت توهم أطفالها بتحضير الأكل، لكنّها في واقع الأمركانت تقوم بسَلْقِ الحصى على النّار، إنّه البحث عن المنقذ، ولكن من هو المنقذُ؟ إنّه يدرك بوعيٍ تامّ أنّ هذا ليس عصر الخوارق الفرديّة، إنَّه عصر جماعيٌّ، وجميع وُلاَّةِ الأُمور من بني قومه، وجلدته ليسوا بقدر المسؤوليّة، وكأنّه وحده المقصود .

ومن اللّافت للنّظر أنّ مصاحبات رمز الحجر في الشّعر الفلسطيني "كثيرًا ما تكون لها علاقة بالخصب والاخضرار والطُّفولة، فأحمد دحبوري قرن "حجارة الصّباح" ب "خضرة الدنيا"، أمّا معين بسّيسو فيتلو بلاغ الشّجر وبلاغ الحجر ،كما أنّه يرى تلّ الزّعتر، مرصّعًا بالقمح والأحجار، ويقرن محمود درويش الحجر بالزّعتر، في قصيدته الشّهيرة أحمد الزّعتر حيث (ليدين من حجر وزعتر هذا النّشيد)، ويرى نشيده في نصّ آخر مُتَبَدِّيًا باخضرار المدى واحمرار الحجارة"[13].

ويرى توفيق زياد في الحجر رمز الصّبر والصُّمُود والمقاومة، ولعلّ أحسن مثال على ذلك قوله في مذبحة كفر قاسم في قصيدته بعنوان "كفر قاسم" وقد قالها في أعقاب المجزرة مباشرة، فبرز فيها صراخ المفجوع الّذيلا يُصدّق ما وقع، فيميل إلى توهُّم أنَّها حُلم مُريع (فظنوه أضغاث حلم مريع)لولا ما يدقُّه تتابع اللَّيالي، وصرخات المصابين الَّتي تفجّر براكين الحقد والكراهيَّةوالنّقمة في نفوس أهل قرية كفر قاسم :

صراخ تفجّر في أمّتي

براكين بالحقد والنّقمة

وباللّعنة المرّة

صُراخ يهزُّ ضمير البشرْ ويفلق قلب الحجر[14]

الحجر دلالة على قوّة الصّدمَة، على عظم الفاجعة إثر المجزرة البشعة الّتي قام بها المستعمر، والّتي تؤثّر حتّى في القلوب القاسية، وتفلق قلب الحجر، وفي قصيدته "أمامضريح لينين" يجعل من الحجر رمز التَّسلّط والجبروت والقساوة:

أردت أن أقول كلمتين..للحجر الأحمر،

للحارس الواقف كالتّمثال[15]

إن البعد المادي للحجر في هاتين المقطوعتين هوبعد القساوة،يقول تبارك وتعالى:﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾[16]أي أن قلوب بني إسرائيل في قسوتها كالحجارة التي لا تلين، بل إنها أشدّ قسوة منها.

وفي قصيدته كراسنايابريستايا*يجتمع الحجر، والتراب،والزّقّاق، والعتبة،والباب،وكل ورقة من الشّجر لتقف في وجه المستعمرين الأشرار (وهي رمز يجمع بين الحق والخير والجمال) يقول :

كل ثنية هنا ..كل حجر .

وكل حبة من التراب

كل زقّاق، كل عتبة ، وباب

وكل ورقة من الشّجر

تعمّدت بالنّار،

ارتفعت في أوجه الأشرار[17]

الحجر في هذه الأبيات هو رمز الحقّ ورمز الصمود ،ويبقى الحجر رمزا للمقاومة ، ولكن في هذه المرّة لصالح المحتلّ المضطهد الذي يرنوا إلى الحرية ، ويرمز إليها بحبّة السّكر، فهو منذ عامين يعاني في حلقه مرارة الظّلم،والعار الذي صَيَّرَ شرايينه

حجارة قاسية تنقذ حبيبته الفاتنة السمرا —أمّ درمان–من كلّ الصعاليك يقول :
منذ عامين وفي حلقي مراره / ومن العار الذي ذقت / شراييني حجارة / أعطني.../حبة.. / سكر[18]

ويجمع الشّاعر بين الحجر والرُّموز الطَّبيعيَّة الأُخرى، إذ نجده في قصيدة "المصلوب" يقرنه بالأرض،والقمر،وعين الماء،والزّيتون، والبيارة العطشى، والزّهر والسّكة وكرم الدّوال , وألف قصيدة خضراء منها يورق الحجر،أي يحصحص الحقّ :

أحبائي.../ أنا بالورد والحلوى/ وكلّ الحبّ أنتظر/ أنا، والأرضُ،والقمرُ / وعين الماء، والزَّيتون، والزَّهر/ وبياراتنا العطشى، وكرم دوال !../ وألف قصيدة خضراء/ منها يورق الحجر[19]

وهو بهذا يمثل شكلًا من أشكالالخصب والانبعاث، إذ يأخذ رمز الحجر عند سميح القاسم وجهة أخراة ، إنّه يرتقي به إلى مستوى البطل الانبعاثي مرتكزًا على استراتيجيَّة الانتفاضات الشّعبيّة من ناحية، وعلى أسطورة الانبعاث من ناحية أخرى يقول في مملكة الآ .ر.بي.جي :

كان شعبنا من الأطفال/وكانت مليكتُهم / سنونوة تطير دومًا نحو الرَّبيع/ أما الملك /فكان حجرًا / مات الحجر/فصار وردة/ ماتت

الوردة / فصارت تفاحة/ من رماد الموتى انطلقت عنقاء جديدة / تطير دومًا نحو اسمها [20].

إنّزواج الحجر بالسُّنونوة الرَّبيعيَّة قد جعلته بطلًا انبعاثيًّا،يموت لا لكي يفنى بل لكي يتحوَّل إلى طور أَرقى،لكي يتحوَّل إلى وردة، وهذه تتحوَّل بدورها إلى تفَّاحة،لتتحوَّل هي الأخرى إلى عنقاء تطير نحو الرَّبيع أو نحو ذاتها.

لقد دخل الحجر في الشّعر الفلسطيني مرحلة الألوهة المؤَنْسَنَةِ أو بحسب مصطلحات علم الجمال، دخل مرحلة الجلال[21].

يقول سميح القاسم : هكذا بالضربة القاضية / بالوردة والتُّفاحة والحجر / الثالوث المقدس / الإله الَّذي لا يغادر ضحاياه

دون صلاة صغيرة[22]

لعلّ اقتران الحجر بالوردة والتُّفاحة، في المقبوسين السّابقين، يحيل على تلازُم القيم الكلاسيكيَّة الثلاث في الفلسفة اليونانية، وهي الحق،والخير، والجمال.فإن كانت الوردة هي الجمال والتُّفاحة هي الخير مرتبطا بالجمال، فإن الحجر هو الحق مرتبطا هو الآخر بكلّ من الخير والجمال، والقاسم في توحيده لتلك القيم بإله واحد، هو رمز المقاومة، وبشكل فنّي ذكي يجمل الشاعر سمات القضيَّة الفلسطينيَّة في الحقّ والخير والجمال، ممَّا يعني أنَّ العداء أو الحياد اتّجاه تلك القضيَّة،يعني عداءً أو حيادًااتجاه الحقّ والخير والجمال[23].

يجعل شاعرنا من الحجارة رمزًا للمقاومة ، فهي السّلاح الَّذي يدافع به الفلسطينيُّون عن أنفسهم وأرضهم المغتصبة ، من أجل ذلك لُقِّبوا بأطفال الحجارة:أطلع في الأمصار/ أطلع في البرق الأزرق /من حقد الشَّفة المحروقة / من زحف مظاهرة عفويّة / من قذف زجاج وحجارة

في وجه الرِّيح الوحشيَّة/أطلع من غيظ رقيق/ أعرفه وقت الضيق[24]

مثّل رمز الحجر عند سميح القاسم رمز البطولة، فهو السّلاح الّذي يتصدّى به الشّعب الفلسطيني للصّهاينة ، ويعبّرون به عن تظلُّمهم وغضبهم . ونلتقي بالحجرالأسطورة عند محمود درويش حيث يقول : أنا الحجرُ..../أنا الحجر الّذي مسّته زلزلة / رأيتُ الأنبياء يُؤجرون صليبهم / واستأجرتني آية الكرسي دهرا /ثُم صرت بطاقة لِلتّهنِئاتتغيّر الشُّهداء والدُّنيا/ وهذا ساعدي/تتحرّك الأحجار /فالتقُّوا على أُسطورتي[25]

نلحظ في هذا المقبوس اِنسِجامًا بين الشّعر والحجارة والشُّهداء، فهو الحجر الّذي مسّته زلزلة فأصبح بطاقة للتّهنئات وتغيّر الشُّهداء والدُّنيا ، فيحرّك ساعده ليقذف الأحجار الّتي هي السّلاح الوحيد الّذي يملِكُه. وممّا جادتبه قريحته في هذا الشأن – سقط القناع –من قصيدته مديح الظّلّ العالي:

سقطت ذراعك ، فالتقطها ، اِضرب عدوّك /انتصر / وسقطت قربك فالتقطني، واضرب عدوّك بي / فأنت الآن حرٌّ...

حرٌّ وحرٌّ وحرٌّ

الحجر ،إذا، هو البطولة المتجسّدة في المقاومة الشّعبيّة ، وما كان للحجر أن يحيل على البطوليّة ، لولا واقع الاِنتفاضات الشّعبيّة في يد فلسطين ، إنّه السّلاح الوحيد في يد الطُّفولة المنتفضة .

بإمكاننا ان نعزّز كل ما ذكرناه سابقا بخير شاهد وهو قوله تعالى، في سورة البقرة:﴿ثُمَّ **قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[26]حيث نرصد للحجر –من خلال هذا الشّاهد – ثلاثة أبعاد:

أ– البعد المادي : المتمثل في القساوة ﴿**ثمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾

ب– بعد الخصب والنّماء ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ** ﴾

ج– البعد الرُّوحاني﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾.

لعلّ تعدُّدَ أبعاد الحجر ودلالاته، ينهض من الكثافة الشُّعوريَّة والمعنويَّة الَّتي يعبّر عنها المبدع وفقًا لطبيعته النَّفسيَّة،ثمّ إنّ القيمة الجمالية لرمز الحجر تكمن في تبدّلها بشكل دائم ممّا يضمن استمراريته في مقاومة الاحتلال الصهيوني.

الهوامش:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، ط8، 1426هـ–2005م، ص512، مادة روز.
2. الزمخشري، أساس البلاغة، دار النفائس، بيروت–لبنان، ط1، 2003م، ص233، مادة رمز.
3. سورة الهمزة، الآية 1.
4. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، ط1، 1422هـ–2002م، ج4، ص2071.
5. الطّرمّاح، الدّيوان،تحقيق عزّة حسن، ط2، 1414هـ–1994م، دار الشّرق العربي، بيروت–لبنان، حلب–سوريا، ص208 .
6. درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص102.
7. سورة التين، الآية 1.
8. أحمد نصر الله، مختصر صحيح الجامع الصغير للسيوطي والألباني، شركة ألفا للنشر والانتاج الفني، الهرم، ط1، 1429هـ–2008م، ص248.

9. معين بسيسو، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، د.ط ، 1979م، ص293.
10. ينظر: سعد الدين كليب، وعي الحداثة، دراسات جمالية في الحداثة الشعرية، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997م، ص71.
11. أحمد دحبور، الديوان،دار العودة- بيروت،1983،ص288.
12. البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم)، ص935.
13. ينظر: سعد الدين كليب، وعي الحداثة، ص72.
14. توفيق زياد، الديوان، دار العودة، بيروت، د.ط، 2000م، ص308-309.
15. توفيق زياد، الديوان، ص32.
16. سورة البقرة، الآية 74 .

* أوحي النهر الأحمر "هو حي" صناعيّ عريق في موسكو، وكان النّبض الحيّ لموسكو في ثورة 1905 حيث التهبت فيه حرب المتاريس، في تلك الثورة والانتفاضات الشعبية الأخرى.

17. توفيق زياد، الديوان، ص26.
18. توفيق زياد، الديوان، ص464.
19. توفيق زياد، الديوان، ص132-133.
20. سميح القاسم، جهات الروح، دار الحوار، اللاذقية، د.ط، 1994م، ص114-115.
21. سعد الدين كليب، وعي الحداثة، ص73.
22. سميح القاسم، جهات الروح، ص70.
23. ينظر سعد الدين كليب، وعي الحداثة، ص74.
24. سميح القاسم، الديوان، 1973م، ص246-247.
25. محمود درويش، الديوان، ط11، 1984م، ص480.
26. سورة البقرة، الآية 74.